الحرية

مصطفى لطفي المنفلوطي

استيقظت فجر يوم من الأيام على صوت هرة تموء بجانب فراشي وتتمسح بي، وتلح في ذلك إلحاحا غريبا، فرابني أمرها، وأهمني همها وقلت: لعلها جائعة، فنهضت، واحضرت لها طعاما فعافته، وانصرفت عنه. فقلت: لعلها ظمآنة، فأرشلتها إلى الماء فلم تحفل به وأنشأت تنظر إلى نظرات تنطق بما تشتمل عليها نفسي من الآلام والأحزان، فأثر في نفسي منظرها تأثيرا شديدا، حتى تمنيت إن لو كنت سليمان أفهم لغة الحيوان، لأعرف حاجتها، وافرج كربتها، وكان باب الغرفة مرتجا، فرأيت أنها تطيل النظر إليه وتلتصق بي كلما رأتني إتجه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنها تريد أن افتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء، ورأت وجه السماء، حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو في سبيلها، فعدت إلى فراشي واسلمت راسي إلى يدي، وأنشأت أفكر في أمر هذه الهرة، وأعجب لشانها وأقول: ليت شعري هل تفهم هذه الهرة معنى الحرية فهي تحزن لفقدانها وتفرح بلقياها؟ أجل. أنها تفهم معنى الحرية حق الفهم، وما كان حزنها وبكاؤها وامساكها عن الطعام والشراب الأمن أجلها، وما كان تشرعها ورجاؤها وتمسحها وإلحاحها الاسعيا وراء بلوغها.

وهنا ذكرت أن كثيرا من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لايشعرون بما تشعر به الهرة المحبوسة في الغرفة، والوحش المعتقل في القفص، والطير المقصوص الجناح من ألم الأسر وشقائه، بل ربما كان بينهم من يفكر في وجهه الخلاص أو يتلمس السبيل إلى النجاة مما هو فيه، بل ربما كان بينهم من يتمنى البقاء في هذا السجن ويأنس به ويتلذذ بالأمه وأسقامه.

من أصعب المسائل التي يحار العقل البشري في حلها: أن يكون الحيوان الأعجم أوسع ميدانا في الحرية من الحيون الناطق، فهل كان نطقه شؤما عليه وعلى سعادته؟ وهل يجمل به أن يتمنى الخرس والبله ليكون سعيدا بحريته كما كان سعيدا بها قبل أن يصبح ناطقا مدركا؟

يحلق الطير في الجو، ويسبح السمك في البحر، ويهيم الوحش في الأودية والجبال، ويعيش الإنسان رهين المحبسين: محبس نفسه ومحبس حكومته من المهد إلى اللحد.

صنع الإنسان القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالا، وسماها تارة موسا وأخرى قانونا، ليطلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريته باسم الناموس والنظام.

صنع له هذه الآلة المخيفة، وتركه قلقا حذرا، مروع القلب، مرتعد الفرائص يقيم من نفسه على نفسه حرسا تراقب حركات يديه وخطوات رجليه وحركات لسانه وخطرات وهمه وخياله، لينجو من عقاب المستبد ويتخلص من تعذيبه، فويل له ما أكثر جهله! وويح له ما أشد حمقه؟ وهل يوجد في الدنيا عذاب أكبر من العذاب الذي يعالجه؟ أو سجن أضيق من السجن الذي هو فيه؟

ليست جناية المستبد على أسيره أنه سلبه حريته، بل جنايته الكبرى عليه أنه أفسد عليه وجدانه، فأصبح لايحزن لفقد تلك الحرية، ولايذرف دمعة واحدة عليها.

لو عرف الإنسان قيمة حريته المسلوبة منه وأدرك حقيقة مايحيط بجسمه وعقله من القيود، لاتتحرك كما ينتحر البلبل إذا حبسه الصياد في القفص، وكان ذلك خيرا له من حياة لايرى فيها شعاعا من أشعة الحرية، ولاتخلص إليه نسمة من نسماتها.

كان في مبدأ خلقه يمشي عريانا، أو يلبس لباسا واسعا يشبه أن يكون طلة تقيه لفحة الرمضاء، أو هبة النكباء، فوضعوه في القماط كما يضعون الطفل، وكفنوه كما يكفنون الموتى، وقالوا له: هكذا نظام الأزياء.

كان يأكل ويشرب كل ما تشتهيه وما يلتئم مع طبيعته، فحالوا بينه وبين ذلك، وملأوا قلبه خوفا من المرض أو الموت، وأبوا أن يأكل أو يشرب إلا كما يريد الطبيب، وأن يتكلم أو يكتب إلا كما يريد الرئيس الديني أو الحاكم السياسي، وأن يقوم أو يقعد أنو يمشي أو يقف أو يتحرك أن يسكن، إلا كما تقضي به قوانين العادات والمصطلحات.

لا سبيل إلى السعادة في الحياة، إلا إذا عاش الإنسان فيها حرا مطلقا، لايسيطر على جسمه وعقله ونفسه ووجدانه وفكره مسيطر الإداب النفس.

الحرية شمس يجب أن تشرق في كل نفسن فمن عاش محروما منها عاش في ظلمة حالكة، يتصل أولها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

الحرية هي الحياة، ولولاها لكانت حياة الإنسان أشبه شيئ بحياة اللعب المتحركة في أيدي الأطفال بحركة صناعية.

ليست الحرية في تاريخ الإنسان حادثا جديدا، أو طارئأ غريبا؛ وإنما هي فكرته التي فطر عليها مذ كان وحشا يتسلق الصخور، ويتعلق باغضان الأشجار.

إن الإنسان الذي يمد يديه لطلب الحرية ليس بمتول ولا مستجد، وإنما هو يطلب حقا من حقوقه التي سلبته إياها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منة لمخلوق عليه، ولا يد لاحد عنده.

جيلنا وجيلكم

أحمد أمين

أي بني.

لعل أهم ما يتميز به جيلكم عن جيلنا هو حيرتكم واطمئناننا، واضطرابكم وسكينتنا، وقلقكم واستقرارنا. و لكن ما سر هذه الحيرة وهذا القلق والاضطراب في جيلكم؟

لقد كان المظنون أن تكونوا أسعد حالا وأهدأ بالا وأكثر اغتباطا بالحياة. فإن المدنية الحديثة قدمت إلى جيلكم من متع الحياة وترف العيش ووسائل الترفي عن النفس أضعاف أضعاف ما كنا نجده في جيلنا. فلم يكن عندنا راديو، ولا سينما، ولا تمثيل، ولا سفور، ولا موسيقى، ولا رقص. كالذي لكم في زمانكم. ولم يكن يتدفق المال علينا كما تدفق عليكم، ولا اتصلنا بالعالم وما فيه من لذائذ مثل اتصالكم، بل ولا نعمنا بالحرية كما نعمتم، ولا حققنا أنفسنا كما حققتم. فما الذي حيركم؟

لعل أهم ما حيركم وطمأننا أننا كنا نركن إلى مبادئ وعقائد نؤمن بها كل الإيمان، ونسير عليها في حياتنا من غير شك، ونشجع السير عليها كل التشجيع، ونحتقر من خرج عليها كل التحقير. فكانت أعمالنا تصدر عنا كما يصدر العمل عن عادة، ليس يحتاج الإتيان به إلى روية ولاتفكير. ثم أتى جيلكم – خضوعا للمدنية الحديثة – فقضى على هذه المبادئ والعقائد والعادات والتقاليد، ولم ينشئ مكانها ما يسد مسدها. فكان من ذلك فراغ لم يملأ، ومبادئ زالت ولم تعوض، وعقائد تهدمت ولم يبن مكانها. والطبيعة تكره الفراغ، وتكره السير على غير هدى، وتكره الهدم من غير بنيان، فكانت الحيرة والقلق والاضطراب.

فقد كانت السلوة الكبرى للناس في جيلنا دينهم. فكانوا يؤمنون بالله، يعرفونه في الرخاء ويلجأون إليه في الضراء والسراء. فيجدون في ذلك كله راحة من عناء، وعونا على الخير، وصيانة من الشر. فلما نبت جيلكم وازدهر شبابكم عصفت عليه عاصفة من المدنية الحديثة، فذهبت بدينكم، وجردتكم من عقيدتكم. فلم تجدوا أرضا ترتكزون عليها ولا ركنا شديدا تأوون إليه.

والأنس بالدين طبيعة النفس وراحة الروح، إذا سلبت من تأنس به أحست بالوحشة وتململت من الفراق. إن الناس يعدون الحواس خمسا، ولكني أعتقد أن هناك في كل إنسان حاسة سادسة هي حاسة الدين. من فقدها فقد عنصرا من عناصره، وركنا عظيما من أركان حياته، ولذلك هدأ المؤمن واضطرب الملحد. وهذا هو الشأن في الشرق والغرب، والمدنية القديمة والمدنية الحديثة.

لقد مر على العالم الغربي نحو قرنين، آمن الناس فيها بالعلم كل الإيمان، واعتقدوا أن النظم السياسية والاقتصادية قادرة على إسعاد العالم. فلما تقدم العلم وتقدمت النظم السياسية والاقتصادية

ولم يروا سعادة، بل شقاء تلو شقاء، وحربا هائلة بعد حرب فاجعة، بدأ يتزلزل إيمانهم بأن العلم وحده كاف لإسعاد الناس. وأيقن كثير من العلماء بأن العلم في حاجة إلى الدين، وأن العقل في حاجة إلى القلب، وأن المنطق في حاجة إلى الحكمة.

أي بني.

إن الإيمان بالله يملأ فراغ النفس، ويوحي بالطمأنينة، ويوثق الصلة بين الفرد وأهله ووطنه، كما يوثق الصلة بينهم جميعا وبين الله.

فنصيحتي لك أن تؤمن ولو ألحد الناس وتوثق الصلة بينك وبين الله ولو قطعها الناس.

أي بني.

وشيئ آخر أحب أن أقصه عليك كان سببا في حيرة جيلك واضطرابه، ذلك أنكم لما فقدتم الدين لم تدخلوا الآخرة في حساب الحياة كما يتطلب الدين، وعشتم للدنيا وحدها من غير نظر إلى ثواب ولا عقاب. فنشأ عن ذلك مرض خطير وشر مستطير زاد في حيرتكم وقلقكم. وهذا هو ما ألمحه فيكم من أنانية مفرطة وأثرة جامحة.

إني لأشعر أن كل فرد منكم يريد أن يعيش لنفسه فقط. فهو في أسرته يريد أن ينال أكبر حظ من اللذة وأقل حظ من الألم. حتى لو استطاع أن يستولي على ميزانية البيت كلها ويترك أهله يتضورون جوعا لفعل. وهو في حياته الخارجية يجري وراء شهوته ولذته مهما كانت العاقبة، ولو آذى أهله ولو آذى وطنه. وهو إذا وظف بحث عن الترقية من أي سبيل شريف أو خسيس. بل وقد تضطره أنانيته إلى أن يمد يده. ثم هو لا يشعر بمسؤليته نحو أهله ولا نحو وطنه ولا نحو أصحاب المصالح الذين يترددون على بابه. إنما يبحث عما يسد شهوته ويملأ أنانيته.

أحمد أمين–إلى ولدي، (القاهرة، 1951)، ص 49–54.

في الأزهر

طه حسين

أقام في القاهرة أسبوعين أو أكثر من أسبوعين، لا يعرف من أمره إلا أنه ترك الريف وانتقل إلى العاصمة ليطيل فيها المقام طالبا للعلم مختلفا إلى مجالس الدرس في الأزهر، وإلا أنه يقضي يومه في أحد هذه الأطوار الثلاثة التي يتخيلها ولا يحققها.

فهو يسكن بيتا غريبا يسلك إليه طريقا غريبة أيضا، ينحرف إليها نحو اليمين إذا عاد من الأزهر فيدخل من باب يفتح أثناء النهار ويغلق في الليل، وتفتح في وسطه فجوة ضيقة بعد أن تصلى العشاء. فإذا تجاوز هذا الباب أحس عن يمينه حرا خفيفا يبلغ صفحة وجهه اليمنى، ودخانا خفيفا يداعب أنفه، وأحس من شماله صوتا غريبا يبلغ سمعه ويثير في نفسه شيئا من العجب.

وقد ظل أياما يسمع هذا الصوت إذا عاد من الأزهر مصبحا وإذا عاد منه ممسيا، يسمعه وينكره ويستحيي أن يسأل عنه. ثم فهم من بعض الحديث أنه قرقرة الشيشة يدخنها بعض تجار الحي ويهيئها صاحب القهوة التي كان ينبعث منها ذلك الحر الخفيف وذلك الدخان الرقيق. فإذا مضى أمامه خطوات وجاوز ذلك المكان الرطب المسقوف الذي لم تكن تستقر فيه القدم لكثرة ما كان يصب فيه صاحب القهوة من الماء، خرج إلى طريق مكشوفة ولكنها ضيقة قذرة تنبعث فيها روائح غريبة معقدة لا يكاد صاحبنا يحققها.

ثم يبلغ الصبي بيته، فيدخل إلى غرفة هي أشبه بالدهليز قد تجمعت فيها المرافق المادية للبيت، وهي تنتهي به إلى غرفة أخرى واسعة غير مستقيمة قد تجمعت فيها المرافق العقلية للبيت. وهي على ذلك غرفة النوم وغرفة الطعام وغرفة الحديث وغرفة السمر وغرفة القراءة والدرس. فيها الكتب، وفيها أدوات الشاي، وفيها بعض الطعام. وكان مجلس الصبي من هذه الغرفة معروفا محدودا كمجلسه من كل غرفة سكنها واختلف إليها.

كان مجلسه عن شماله إذا دخل الغرفة، يمضي خطوة أو خطوتين فيجد حصيرا قد بسط على الأرض ألقي عليه بساط قديم ولكنه قيم. هنالك يجلس أثناء النهار، وهنالك ينام أثناء الليل.

لم يكن الصبي يعرف من بيئته القريبة أكثرمن هذا. فأما الطور الثاني من أطواره فقد كان اضطرابه في الطريق بين هذه البيئة وبين الأزهر. وكان يخرج من ذلك المكان المسقوف فيجد حر القهوة على صفحة وجهه من شمال، وتبلغ قرقرة الشيشة أذنه اليمنى، فيستقبل حانوتا كان له في حياته أثر عظيم، حانوت "الحاج فيروز" الذي كان يبيع لأهل الحي أكثر ما كانت تقوم عليه حياتهم من

الغذاء. يبيع لهم ألوان الفول المدمس إذا أصبحوا. وكان الفول عنده كما هو عند غيره ألوانا مختلفة، ولكنه كان يمتاز بإتقانه ويغالي بثمنه.

فإذا أقبل المساء كان "الحاج فيروز" يبيع لأهل الحي طعامهم من الجبن والزيتون والطحينة والعسل. وربما باع للمترفين منهم علب التونة والسردين، وربما باع لبعضهم حين يتقدم الليل أشياء لم تكن تسمى ولم تكن تؤكل، وإنما كان يتحدث المتحدثون عنها همسا ويتنافسون فيها تنافسا شديدا.

ها هو ذا قد بلغ الأزهر فخلع نعليه وخالف بينهما وأخذهما في يده. فلما تقدم قليلا تخطى عتبة قليلة الارتفاع، ثم انفرج له صحن الأزهر هادئا مطمئنا يترقرق فيه نسيم بارد هو نسيم الصباح. وهو الآن في الطور الثالث من أطوار حياته الأولى.

وكان الصبي يقطع الصحن ويصعد هذه الدرجة اليسيرة التي يبتدئ بها الأزهر نفسه، فيمتلئ قلبه خشوعا وخضوعا، وتمتلئ نفسه إكبارا وإجلالا. ويخفف الخطو على هذه الحصر المبسوطة البالية التي كانت تنفرج أحيانا عما تحتها من الأرض كأنها تريد أن تتيح لأقدام الساعين عليها شيئا من البركة بلمس هذه الأرض المطهرة.

وكان الصبي يحب الأزهر في هذه اللحظة حين ينفتل المصلون من صلاة الفجر وينصرفون وفي عيونهم آثار النعاس، ليتحلقوا حول هذا العمود أو ذاك، وينتظروا هذا الأستاذ أو ذاك، فيسمعوا منه درس الحديث أو درس التفسير أو درس الأصول أو درس التوحيد.

كان الأزهر في هذه اللحظة هادئا لا ينعقد فيه ذلك الدوي الغريب الذي كان يملؤه منذ تطلع الشمس إلى أن تصلى العشاء، وإنما كنت تسمع فيه أحاديث يتهامس بها أصحابها، وربما سمعت فتى يتلو القرآن في صوت هادئ معتدل، وربما مررت إلى جانب مصل لم يدرك الجماعة أو أدركها ولكنه مضى في التنفل بعد أن أدى الفريضة. وربما سمعت أستاذا هنا أو هناك يبدأ درسه بهذا الصوت الفاتر، صوت الذي استيقظ من نومه فأدى صلاته ولم يطعم بعد شيئا يبعث في جسمه النشاط والقوة. فهو يقول (بعد الدعاء): قال المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه آمين.

والطلاب يسمعون لهذا الصوت في هدوء وفتور يشبهان هدوء الشيخ وفتوره. وما أكثر ما كان الصبي يوازن في نفسه بين أصوات الشيوخ حين ينطقون بهذه الصيغة في درس الفجر، وأصواتهم حين ينطقون بها في درس الظهر. فأما أصوات الفجر فكانت فاترة حلوة فيها بقية من نوم، وأما أصوات الظهر فكانت قوية عنيفة ممتلئة فيها شيء من كسل أيضا، تصور امتلاء البطون بما كانت تمتلئ به من طعام الأزهريين.

كان في أصوات الفجر دعاء للمؤلفين يشبه الاستعطاف، وكان في أصوات الظهر هجوم على المؤلفين يوشك أن يكون عدوانا. وكانت هذه الموازنة تعجب الصبي وتثير في نفسه لذة ومتعة.

طه حيسن –الأيام، جزء 2، (القاهرة، 1945)، ص 3–22.

الكأبة الخرساء

جبران خليل جبران

أنتم: أيها الناس تذكرون فجر الشبيبة فرحين باسترجاع رسومه، متأسفين على انقضائه، أما أنا فأذكره مثلما يذكر الحر المعتوق جدران سجنه وثقل قيوده. أنتم تدعون تلك السنين التي تجئ بين الطفولة والشباب عهدا ذهبيا يهزأ بمتاعب الدهر وهواجسه ويطير مرفرفا فوق رؤوس المشاعل والهموم مثلما تجتاز النحلة فوق المستنقعات الخبيثة، سائرة نحو البساتين المزهرة، أما أنا فلا أستطيع أن أدعو سني الصبا سوى عهد آلام خفية خرساء كانت تقطن قلبي وتثور كالعواصف في جوانبه، وتتكاثر نامية بنموه ولم تجد منفذا تنصرف منه إلى عالم المعرفة حتى دخل إليه الحب وفتح أبوابه وأنار زواياه، فالحب قد عتق لساني فتكلمت ومزق أجفاني فبكيت وفتح حنجرتي فتنهدت وشكوت.

أنتم أيها الناس يذكرون الحقول والبساتين والساحات وجوانب الشوارع التي رأت ألعابكم وسمعت همس طهركم، وأنا أيضا أذكر تلك البقية الجميلة من شمال لبنان، فما أغمضت عيني عن هذا المحيط إلا ورأيت تلك الأودية المملوءة سحرا وهيبة، وتلك الجبال المتعالية بالمجد والعظمة نحو العلاء، ولا صممت أذني عن ضجة هذا الاجتماع إلا وسمعت خرير تلك السواقى وحفيف تلك الغصون. ولكن هذه المحاسن التي أذكرها الآن وأشوق إليها شوق الرضيع إلى ذراعي أمه هي هي التي كانت تعذب روحي المسجونة في ظلمة الحداثة مثلما يتعذب البازي بين قضبان قفصه عندما يرى أسراب البزاة تسبح حرة في الخلاء الوسيع – وهي التي كانت تملأ صدري بأوجاع التأمل ومرارة التفكير، وتنسج بأصابع الحيرة والتباس نقابا من اليأس والقنوط حول قلبي– فلم أذهب إلى البرية إلا وعدت منها كئيبا جاهلا أسباب الكآبة. ولا نظرت مساء إلى الغيوم المتلونة بأشعة الشمس إلا وشعرت بانقباض متلف ينمو لجهلي معاني الانقباض. ولا سمعت تغريدة الشحرور أو أغنية الغدير إلا ووقفت حزينا لجهلي موحيات الحزن.

يقولون إن الغباوة مهد والخلو مرقد الراحة – وقد يكون ذلك صحيحا عند الذين يولدون أمواتا ويعيشون كالأجساد الهامدة الباردة فوق التراب، ولكن إذا كانت الغباوة العمياء قاطنة في جوار العواطف المستيقظة تكون الغباوة أقصى من الهاوية وأمر من الموت. والصبي الحساس الذي يشعر كثيرا ويعرف قليلا هو أتعس المخلوقات أمام وجه الشمس لأن نفسه تظل واقفة بين قوتين هائلتين متباينتين: قوة خفية تحلق به السحاب وتريه محاسن الكائنات من وراء ضباب الأحلام، وقوة ظاهرة تقيده بالأرض وتغمر بصيرته بالغبار وتتركه ضائعا خائفا في ظلمة حالكة.

للكآبة أياد حريرية الملامس، قوية الأعصاب تقبض على القلوب وتؤلمها بالوحدة. فالوحدة حليفة الكآبة كما أنها أليفة كل حركة روحية. ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم، وتفتح قلبها لأشعة الفجر وتضم أوراقها بمرور خيالات المساء، فإن لم يكن للصبى من الملاهى ما يشغل فكرته، ومن الرفاق من يشاركه في الأميال، كانت الحياة أمامه كحبس ضيق لايرى في جوانبه غير أنوال العناكب ولايسمع من زواياة سوى دبيب الحشرات.

أما تلك الكآبة التي اتبعت أيام حداثتى فلم تكن ناتجة عن حاجتي إلى الملاهي لأنها كانت متوفرة لدي، ولا عن افتقارى إلى الرفاق لأنني كنت أجدهم أينما ذهبت، بل هي من أعراض علة طبيعية في النفس كانت تحبب إلي الوحدة والانفراد وتميت في روحي الأميال إلى الملاهي والألعاب، وتخلع عن كتفي أجنحة الصبا وتجعلني أمام الوجود كحوض مياه بين الجبال يعكس بهدوءه المحزن رسوم الأشباح وألوان الغيوم وخطوط الأغصان ولكنه لايجد ممرا يسير فيه جدولا مترنما إلى البحر.

هكذا كانت حياتي قبل أن أبلغ الثامنة عشرة، فتلك السنة هي من ماضي بمقام القمة من الجبل، لأنها أوقفتني متأملا تجاه هذا العالم، وأرتني سبل البشر، ومروج أميالهم، وعقبات متاعبهم وكهوف شرائعهم وتقاليدهم.

في تلك السنة ولدت ثانية والمرء أن لم تحبل به الكآبة ويتمخض به اليأس، وتضعه المحبة في مهد الأحلام، تظل حياته كصفحة خالية بيضاء في كتاب الكيان.

في بلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إلي من وراء أجفان إمرأة جميلة، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون في صدر رجل مجرم، ومن لايشاهد الملائكة والشياطين في محاسن الحياة ومكروهاتها يظل قلبه بعيدا عن المعرفة ونفسه فارغة من العواطف.

نموذجان

عباس محمود العقاد

النموذجان المتقابلان في الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة في كل أمة، ولا سيما خلال النهضات التي تبرز فيها كوامن الملكات وتمتحن فيها حقائق الأخلاق .

وعهد التاريخ بها في شئون الضمير كعهده بها في شئون المعرفة والحكمة، أو في شئون السياسة والتشريع، أو في كل شأن له أثر بين في أعمال الناس .

فاصطلح النقاد على تسمية هذين النموذجين في المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطوني نسبة إلى أفلاطون، والنموذج الأرسطي نسبة إلى أرسطاطاليس، أو النموذج الذي يتمثل في النظريات ويتعلق بما وراء الطبيعة، والنموذج الذي يتمثل في التجربة والمشاهدة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة .

وفي الأدب والفن يوجد المثاليون عشاق المثل الأعلى، والواقعيون طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هي ويصفون الناس على ما هم عليه .

وفي السياسة محافظون ومجددون، وفي التشيع حرفيون ومعنويون، وفي العقيدة أو فقه العقيدة مقتدون ومجتهدون، وفي ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون، وأصحاب أثرة أو أصحاب إثيار.

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضدين الذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطاء، والخير والشر، والعلم والجهل، والهدى والضلال .

ولكن المقصود هو التقابل الذي يتمم فريقا بمزايا فريق، ويعين قوة نافعة بقوة أخرى تكافئها، ويزدوج في عناصر الأمة كما يزدو في عناصر الأمة كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر، ولا يستقل بفرد جناح .

هذان النموذجان معهودان، لازمان .

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها وجميع مزاياها، وجميع ما فيها من عدد الأهبة والحيطة وبواعث الإقدام والإحجام .

ولازمان في النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة في طريقها واحتجب عنها إمامها وهاديها، وأصبح لزاما بعده أن تتقابل القوى، وتتعاون الجهود .

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة في الأمة العربية بين عشية وضحاها، فإذا الأمة العربية كلها كأنما هي حشد مستعد بكل عدة، متزود بكل زاد .

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء، ظهر فيها المقدمون والمتحذرون، وظهر فيها الخياليون والعمليون، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه.

وبين هذه النماذج كلها نموذجان من الطراز الأول، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق في غيرهما من الملكات والشمائل والميول .

نموذجان كبيران تغيب في أطوائهما جميع النماذج الصغار.

وهما نموذج الصديق و نموذج الفاروق.

بين هذين الرجلين العظيمين تقابل كثير الشعب متعدد الأنحاء: تقابل ينتهي إلى التجاذب والأخاء ولا ينتهي إلى التدافع والنفار، لأنهما كانا يحومان معا في نطاق كوكب واحد، أو نظام كوكبي واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحد، هي لها جميعا مركز أصيل لا تنفصل عنه .

وربما دخل في وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملناه من الفوارق التي تختلف بها نماذج الناس: العقل والعاطفة، والمحافظة والتجديد، والواقع والمثل الأعلى، وما لا يحصى من الألوان والشيات، والأطراف والحدود.

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل لتلخيص في فارق واحد يطويها من معظم نواحيها، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد .

كان أبو بكر نموذج الاقتداء في صدر الإسلام غير مدافع .

وكان عمر في تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مراء .

و كلاهما كان يحب النبي ويطيعه ويحرص على سنته ويعجب به غاية ما في وسعه من إعجاب ..

ولكنهما في ذلك طريقان يتوازيان، وإن كانا لا يتناقضان لا يتحدان .

و إن بينهما في ذلك لفرقا لطيف المأخذ عسير التمييز، نحاول الإيضاح عنه جاهذين، ونرجو أن نبرزه بأوفى ما يستطاع له من إبراز، ونحسب أننا موفقون حين نقول: إن تقديم وصف على موصوف يكفي في الإبانة عن هذا الفرق الدقيق الذي لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق .

فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبي .

وعمر كان يعجب بالنبي محمد .

ونزيد القول إيضاحا فنقول: إن حب أبي بكر لشخص محمد هو الذي هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحيه .

وإن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذي هداه إلى حبه والولاء له والحرص على سنته، وعلى رضاه .

ولهذا كان أبوبكر صاحبا آمن بصاحبه الذي يطمئن إليه ويحمد خصاله، وكان عمر عدوا رده الاقتناع إلى مودة الر جل الذي كان ينكره ويعاديه .

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمدا فيفهم القرآن، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمدا حتى يثوب إلى الفهم الصحيح .

هما قريبان جد قريبين .

ولكنهما ليسا بشيئ واحد على كل ما بينهما من اقتراب، أو هما كما قلنا في ختام الفصل السابق: أبو بكر أول المقتدين، وعمر ثاني المجتهدين، وبذلك يتكافآن ولا نقول يتفاضلان .

نعم ينكافان ويتعادلان، وهذا الذي نريد أن نؤكده ونتجنب فيه سوء الفهم والتفسير .

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظيمين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة .

كلا هذا أبعد ما يخطر على بال أحد يدرك فضائل الرجلين العظيمين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل.

فإن الضعف "سلبي" لا يجنى منه عمل عظيم .

وصلابة أبي بكر في حرب الردة لم تكن صلابة "سلبية" تقول "لا" في موضع "نعم" ولا تزيد .

ولكنها كانت صلابة تثوب إلى قوة لا شك فيها: قوة مصدرها الاقتداء. هذا لا يهم في وصفها بالقوة وإبعادها من صفة الضعف والعجز عن القدرة... وإنما المهم أنها قوة فعالة، وأنها قوة عظيمة لا مراء .

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف، وقدرة وعجز عن القدرة .

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر، وكلتاهما فعالة، وكلتاهما ذات أثر في الإسلام، وفي العالم جليل .

وليس من الضروري اللازم أن يكون كل مقتد أقل في الشأن و الأثر من كل مجتهد برأيه، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين، وقد يكون الاقتداء وكله خير، ويكون الاجتهاد ولا خير فيه .

ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس، لأنه أقرب إلى المشاهدة والإقناع .

فالمصابيح الكهربائية منها ما هو أم مستقل بمفتاحه، ومنها ما هو تابع موصول بمفتاح غيره .

ويتفق مع هذا أن يكون "المصباح الأم" أصغر حجما وأضعف نورا من المصباح الذي يتبع غيره ويضيئ بمفتاحه، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء .

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التي تدور حول غيرها: لا يلزم أن يكون كل كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر، وإن تكرر هذا في العيان وسبق إلى الأذهان .

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفاروق، بين أول المقتدين وثاني المجتهدين. فهو بين قوة من نوع، وقوة من نوع آخر، ولا محل للضعف في الموازنه بين هاتين القوتين.

كيف كنت عفريتا من الجن

إبراهيم عبد القادر المازني

كان ذلك وأنا فتى يافع لا أفكر في غير الساعة التي أكون فيها ولا أبغي إلا أن أستوفي حظي في الحياة. وفي ليلة من ليالي الصيف الحميدة، ثنيت الخطى إلى البيت – وكان في حي "الصليبه" – بعد أن أخذت نصيبي من شراب وسماع. فلما بلغته ووقفت على عتبته، ذكرت أن ليس به أحد سوى جدتي التي أوفت على التسعين، وأن المفتاح ليس معي، فقلت لنفسي – "أولى بي أن أدعها مستريحة وأن الحق ببقية الأسرة – أمي وأخي – والجو رائق والمشي منعش".

فانصرفت. ولم يكن الطريق إلى الأمام – في تلك الأيام – معبدا، ولا ترام هنا ولا نور، فاخترت أقصر مسلك وهو الذي يمر بمسجد "السيدة نفيسة" ويخترق المقابر المبعثرة وراءه ويتصل بالطريق العام المطروق عند آخره. ومضيت أخبط فيه، وأتخبط أيضا لأن كثرة المقابر وانتشارها وتزاحمها تضل ولا سيما في الظلام. غير أني لم أكثرت لذلك ولا فكرت فيه، وفوضت الأمر لرجلي تدبان حيث ألفتا أن تدبا في أوقات شتى من النهار والليل.

وبينما أنا سائر لمحت شبحا مقبلا ولم أشك في أنه رجل. فما تجرؤ المرأة – الا في الندرة القليلة – أن تسير بين القبور في الليل. وساورتني الشكوك، وخطر لي أن القادم قد يكون لصا. وقد لا يكون ذلك، ولكن وحشة المكان وسكون الليل قد يغريانه بالتلصص. غير أني طمأنت نفسي وقلت –"وماذا أخشى وليس معي شيئ يستحق السرقة؟ إن هي إلا بضعة قروش لا تغنيه إذا فاز بها ولا تفقرني إذا خسرتها. وأنا بعد خفيف الوزن سريع العدو وعارف بالمداخل والمخارج. وما أحسبه يستطيع أن يدركني إذا أطلقت ساقي للريح. فلا خوف من القادم، وليكن من يشاء". على أن الحكمة مع ذلك أن أتوارى خلف قبر منزو، لأراه دون أن يراني، ولأعرف ماذا هو، وليسير أمامي وأكون أنا وراءه فذلك أدعى إلى الاطمئنان.

ودنا القادم فإذا هو شيخ كهل، أبيض اللحية وفي يده سبحة، وهو يذكر الله أو يتلو من القرآن أو لا أدري ماذا كان يتمتم وبأي كلام كان يحرك شفتيه. فغاظني أن هذا الشيخ الضعيف قد أفزعني. وكأنما تحركت نفسي للانتقام منه، فغافلته في بعض الطريق وظهرت له فجأة من وراء قبر فريع المسكين وكاد يتهافت إلى الأرض. وأسرعت فتواريت وعدت أدراجي مسافة قبر أو قبرين – أي بضعة أمتار– وكان الرجل يتلفت حوله فلا يبصر شيئا ولا يسمع حسا. فشد بعضه إلى بعض ورفع صوته بالاستعاذة من كل شيطان رجيم واستأنف التلاوة والسير، وأنا أتسلل بين القبور وراءه.

وصارت خطاه أسرع، فأدركت أن الخوف لا يزال في قلبه. ووثبت إلى جانبه مرة أخرى، ومددت يدي بخفة فجذبت شعر لحيته فصرخ واختفيت. ودرت من وراء القبور قسبقته وأنا أكاد أجن من السرور. فقد بلغ الاضطراب بالرجل غايته، وصار يخلط في كلامه كالذي لا يعي ما يقول. فكان يصيح "أعوذ بالله من..." من شدة ما أصابه من الفزع. وانطلق الرجل يعدو.

وهكذا أفلت مني... وكنت قد تعبت فلم أحاول أن ألحق به، فمشيت متمهلا ونفضت التراب عن ثيابي وخرجت إلى الطريق العام المطروق.

وبعد قليل – ربع ساعة أو نحو ذلك – بلغت مسجد الإمام الشافعي. وكان المؤذن يمهد للأذان بغناء سخيف والناس يخرجون إلى المسجد ليتهيأوا لصلاة الفجر، فرأيت جماعة يحيطون بصاحبي.

الشيخ وهو يقول لهم:

"وكان كالقط الأسود، يثب على كتفي ويلحس لي خدي وينفذ من بين رجلي، وكنت أستعيذ بالله فتنشق الأرض ويغيب في جوفها. ولكنه كان يعود فيظهر لي، أحيانا في صورة الدبة راكضا على يديه ورجليه، وأحيانا أخرى في مثل كفن الميت خارجا من تحت أحجار القبر، فأتلو ما تيسر من القرآن فيلتف الوجه في خرقة ويهوي الجسم إلى قبره. ولست أنسى ما حييت أسنانه. لقد كانت كالجمرات لامعة حمراء وكانت تضطرب في فمه وتخفق كالنجوم والحمد لله الذي أنجاني منه".

ودار بوجهه ليشير إلى المكان الذي نفذ منه إلى الطريق العام فأبصرني وراءه فاضطرب وصاح وهو يشير إلي بيديه.

"أهه... أهه... أهو..."

فلم يفهم أحد سواي معنى صيحته وإشارته، ورددت الضحك الذي ازدحم في حلقي والتفت ورائي كأنما أريد أن أنظر إلى حيث يشير. وكان الرجل يترجع ويلصق بالناس، فسأله بعضهم–

"أين؟ إنا لا نرى شيئا".

فمسح الشيخ وجهه بكفه وعاد إلى الهدوء وقال–

"غريب... غريب... إن هذا الأفندي يشبهه جدا".

إبراهيم عبد القادر المازني –صندوق الدني، (القاهرة، لا تاريخ)، ص106–111.

في القطار

محمد تيمور

صباح ناصع الجبين يجلي عن القلب الحزين ظلماته، ويرد للشيخ شبابه، ونسيم عليل ينعش الأفئدة ويسري عن النفس همومه، وفي الحديقة تتمايل الأشجار يمنة يسرة كأنها ترقص لقدوم الصباح والناس تسير في الطريق وقد دبت في نفوسهم حرارة العمل، وأنا مكتئب النفس أنظر من النافذة لجمال الطبيعة وأسأل نفسي عن سراكتئابها فلا أهتدى لشيئ.

تناولت ديوان "موسيه" وحاولت القراءة فلم أفلح، فألقيت به على الخوان، وجلست على مقعد واستسلمت للتفكير كأني فريسة بين مخالب الدهر.

مكثت حينا أفكر، ثم نهضت واقفا، وتناولت عصاى وغادرت منزلي، وسرت وأنا لا أعلم إلى أي مكان تقودني قدماي، إلى أن وصلت إلى محطة باب الحديد، وهناك وقفت مفكرا، ثم اهتديت للسفر ترويحا للنفس وابتعت تذكرة درجة ثانية. وركبت القطار للضيعة لأقضي فيها نهاري بأكمله.

جلست في أحدى غرف القطار بجوار النافدة، ولم يكن بها أحد سواي، وما لبثت في مكاني قليلا حتى سمعت صوت بائع الجرائد يطن في أذني (وادي النيل. الأهرام. المقطم) فابتعت إحداها وهممت بالقراءة، وإذا بباب الغرفة قد انفتح ودخل شيخ من المعممين، أسمر اللون طويل القامة، نحيف القوام، كث اللحية، له عينان أقفل أجفانهما الكسل، فكأنه لم يستيقظ من نومه بعد وجلس الأستاذ غير بعيد عنى وخلع مركربه الأحمر قبل أن يتربع على المقعد، ثم بصق على الأرض ثلاثا، ماسحا شفتيه بمنديل أحمر يصلح أن يكون غطاء لطفل صغير، ثم أخرج من جيبه مسبحة ذات مائة حبة وحبة، وجعل يردد إسم الله والنبي والصحابة والأولياء والصالحين، فحولت نظري عنه فإذا بي أرى في الغرفة شابا لا أدري من أين دخل علينا، ولعل اشتغالي برؤية الأستاذ منعني أن أرى الشاب ساعة دخوله.

نظرت إلى الفتى وتبادر لذهني أنه طالب ريفي انتهى من تأدية امتحانه، وهو يعود إلى ضيعته ليقضي إجازته بين أهله وقومه. نظر إلي الشاب كما نظرته إليه، ثم أخرج من محفظته رواية من روايات مسامرات الشعب، وهم بالقراءة بعد أن حول نظره عني وعن الأستاذ ونظرت للساعة راجيا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر رابع، فإذا بأفندي وضاح الطلعة حسن الهندام، دخل غرفتنا وهو يتبختر في مشيته، ويردد أنشودة طالما سمعتها من باعة الفجل أو الترمس. جلس الأفندي ويتبسم واضعا رجلا على رجل بعد أن قرانا السلام،فرددنا رد الغريب على الغريب.

وساد السكون في الغرفة، والتلميذ يقرأ روايته، والأستاذ يسبح وهو غائب عن الوجود والأفندي ينظر لملابسه طورا وللمسافرين تارة أخرى، وأنا أقرأ وادى النيل منتظرا أن يتحرك القطار قبل أن يوافينا مسافر خامس.

مكثنا هنيهة لا نتكلم كأنما ننتظر قدوم أحد، فانفتح باب الغرفة ودخل شيخ يبلغ الستين، أحمر الوجة، براق العنين، يدل لون بشرته على أنه شركسي الأصل، وكان ممسكا مظلة أكل الدهر عليها وشرب، أما حافة طربوشه فكانت تصل إلى أطراف أذنيه، وجلس أمامي وهو يتفرس في وجوه رفقائه المسافرين، كأنه يسألهم من أين هم قادمون وإلى أين هم ذاهبون. ثم سمعنا صفير القاطرة تنبئ الناس بالمسير، وتحرك القطار بعد قليل يقل من فيه إلى حيث هم قاصدون.

سافر القطار ونحن جلوس لا ننبس ببنت شفة، كأنما على رؤسنا الطير، حتى اقترب من محطة شبرا فإذا بالشركسي يحملق في ثم قال مرجها كلامه إلى:

هل من أخبار جديدة يا أفندي؟

فقلت وأنا ممسك الجريدة بيدي:

ليس في أخبار اليوم ما يستلفت النظر اللهم إلا خبر اهتمام وزارة المعارف بتعميم التعليم ومحاربة الأمية.

ولم يمهلني الرجل من أن أتم كلامي، لأنه اختطف الجريدة من يدي دون أن يستأذنني وابتدأ بقراءة ما يقع تحت عينيه، ولم يدهشني ما فعل لأني أعلم الناس بحدة الشراكسة. وبعد قليل وصل المقطار محطة شبرا، وصعد لغرفتنا أحد عمد القليوبية، وهو رجل ضخم الجثة، كبير الشارب أفطس الأنف، له وجه به آثار الجدري، تظهر عليه مظاهر القوة والجهل. جلس العمدة بجواري بعد أن قرأ سورة الفاتحة وصلى على النبي، ثم سار القطار قاصدا قليوب.

عبودية المرأة

قاسم أمين

يتعجب بعض الناس من طلبي تخويل الحرية للنساء ويتساءلون هل هن في قيد الرق؟ ولو فهموا معنى الحرية لما اختلفوا معنا في الرأي.

ليس مرادنا أن نقول أن المرأة اليوم تباع وتشترى في الأسواق. ولكن ليس الرقيق هو الإنسان الذي يباح الاتجار به فقط، بل الوجدان السليم يقضي بأن كل من لم يملك قياد فكره وإرادته وعمله ملكا تاما فهو رقيق. ولا أظن أن القارئ المنصف يختلف معي في الرأي إن قلت إن المرأة في نظر المسلمين على الجملة ليست إنسانا تاما، وإن الرجل منهم يعتبر أن له حق السيادة عليها ويجري في معاملته معها على هذا الاعتقاد. والشواهد على ذلك كثيرة.

فليس من الأدب في كثير من العائلات أن لا تقبل المرأة يد الرجل عند السلام عليه، ولا من الأدب أن يجلس النساء مع الرجال، ولا من الأدب أن يأكلن معهم. وقد رأيت مرارا بعيني أن الرجل يجلس على مائدة الطعام وامرأته قائمة تطرد الذباب عنه وبنته تحمل الماء.

نعم إن معاملة الرجل للمرأة على هذه الطريقة الفظة المستهجنة تشاهد في الغالب في بعض الطبقات خصوصا في بلاد الأرياف. لكن استعباد المرأة في الطبقات الأخرى موجود على أشكال أخرى.

فالرجل الذي يحجر على امرأته أن لا تخرج من بيتها لغير سبب سوى مجرد رغبته في أن لا تخرج لايحترم حريتها. فهي من هذه الجهة رقيقة بل سجينة والسجن أشد سلبا للحرية من الرق.

ولو أخذ المسلمون برأي الجهال من فقهائهم، وهم أهل الرأي عندهم، لرأوا من الواجب عليهم أن يسجنوا نسائهم، وأن لا يسمحوا لهن بالخروج إلا بزيارة الأقارب في العيدين، ورأوا من الأفضل أن لا تخرج من بيتها في جميع الأحوال. وقد عدوا من مفاخرهم أن لا تخرج المرأة من بيتها إلا محمولة إلى قبرها.

ولا شك في أن تقرير الحق للرجل في سجن روجته ينافي الحرية التي هي حق طبيعي للإنسان.

والمرأة التي يسوقها والدها كالبهيمة إلى زوج لا تعرفه ولا تعرف شيئا من أحواله معرفة تسمح لها بأن تتبين حقيقة أمره لا تعتبر حرة في نفسها بل تعد في الحقيقة رقيقة.

ومن المعلوم أن عموم الآباء في جميع طبقات الأمة يزوجون بناتهم على هذه الطريقة. فيتخابرون مع الخطاب ثم يعقدون عقد الزواج. أما هن فلا رأي لهن في هذا الأمر الخطير الذي

تتعلق به سعادتهن وشقاؤهن في المستقبل. ولا يقال إن حال الرجل في ذلك كحال المرأة إذ هو أيضا لا يعلم من أحوال خطيبته شيئا، لأن الرجل يمكنه أن يتخلص من عواقب جهله بأن يطلقها في أي وقت شاء أو يتزوج غيرها مثنى وثلاث ورباع.

أما المرأة التي تبتلى برجل لا ترضى نفسها بمعاشرته فليس لها إلى الخلاص منه سبيل. فتزويج المرأة برجل تجهله وحرمانها حق التخلص منه مع إطلاق الإرادة للرجل في إمساكها وتسريحها كيف يشاء هو استعباد حقيقي. والمرأة التي يجب أن لا تتعلم إلا فروض العباد كما يقول الفقهاء ومن أخذ عنهم، أو يجب ان لا تتعلم إلا مقدارا محدودا من مبادئ بعض العلوم، تحسب رقيقة. لأن قهر الغرائز الفطرية والمواهب الإلهية على لزوم حد مخصوص ومنعها عن النمو إلى أن تبلغ الكمال الذي أعدت له يعد استعبادا معنويا.

والمرأة التي تلزم بستر أطرافها والأعضاء الظاهرة من بدنها بحيث لا تتمكن من المشي ولا من الركوب بل لا تتنفس ولا تنظر ولا تتكلم إلا بمشقة تعد رقيقة.

وبالجملة، فالمرأة من وقت ولادتها إلى يوم مماتها هي رقيقة لأنها لا تعيش بنفسها ولنفسها وإنما تعيش بالرجل وللرجل. وهي في حاجة إليه في كل شأن من شئونها. فلا تخرج إلا مخفورة به ولا تسافر إلا تحت حمايته ولا تفكر إلا بعقله ولا تنظر إلا بعينه ولا تسمع إلا بأذنه ولا تريد إلا بإرادته ولا تعمل إلا بواسطته. ولا تتحرك بحركة إلا ويكون مجراها منه. فهي بذلك لا تعد إنسانا مستقلا بل هي شيئ ملحق بالرجل.

أنظر إلى صبي لا يزيد عمره عن خمس عشرة سنة، وقارن بينه وبين والدته تجد أنها أحط منه في العقل والمعلومات والتجارب، وأنه أكبر منها شأنا ليس فقط فيما يتعلق بالأمور الخارجة عن المنزل بل في نفس بيتها. كيف لا وهو الذي يأمر وينهى فيه وهو الذي ينوب عنها في أشغالها وإدارة بيتها وتدبير ثروتها.

إنظر إلى امرأة تمشي في الطريق ومعها خادم تجد في نفسك لأول وهلة إن الخادم يشعر من نفسه أنه هو صاحب الإرادة والرأي والقوة، يمشي أمامها وهي وراء وكأن لسان حاله يقول:- إني أؤتمنت على هذه الذات الجاهلة الضعيفة وعلى ملاحظتها وحراستها وحمايتها.

قاسم أمين-المرأة الجديدة، (القاهرة 1900). ص 30-37.

الأدب للشعب

سلامة موسى

وهناك كلمات تجري على ألسنتنا أو أقلامنا تحمل دلالات جديدة لم تكن تعرفها الأمم القديمة مثل الشعب، الحرية، المساواة، الشخصية، الديمقراطية، حق الانتخاب، التعليم المجاني الخ.

ودلالة هذه الكلمات أن "الشعب" قد برز إلى الوجدان السياسي والاجتماعي. فقد كان الحكم في الأمم القديمة تتولاه طبقة صغيرة حول الملك أو الإمبراطور. وكان الثراء مقصورا أيضا على طبقة صغيرة. وكان الشأن كذلك في التعيلم والثقافة.

ومن هنا أيضا اقتصار الأدب القديم على طبقة خاصة، ثم اشتغال الأديب بشئون هذه الطبقة دون الشعب. لذلك نحن نقرأ كتب الأدب العربي القديم، فلا نجد أية عناية بالصانع أو التاجر أو المزارع أو المرأة، لأن كل هولاء كانوا أميين لم يتعلموا. ولذلك نجد أن المؤلفين كانوا يعنون بقصص الملوك والأمراء، وبما يجب عليهم من الواجبات السياسية للرعية. كما نجد آلاف النصائح والوصايا والحكم من الملك سليمان إلى أردشير إلى الإسسكندر إلى معاوية، وجميعها في شأن الحكم والحرب والولاية والجود والعفو. وهذه كلها وأمثالها شئون كانت تهتم بها طبقة صغيرة حاكمة. أما الشعب، الباعة والتجار والمزارعون والخدم والبناؤون والنجارون، كل هؤلاء لم يكونوا قد ارتفعوا بعد إلى وجدان الأدباء فلم يحس هؤلاء بهم.

ولذلك أيضا نجد أن الأدباء القدماء كانوا يكتبون لأدباء مثلهم. ثم كانت تكون مناقشة ما يكتبون في مجالس الأمراء والملوك وأئمة الدين، لأن أئمة الدين كانوا من الحاكمين والولاة، وكانت الحكومات كلها دينية.

ولذلك نجد أيضا أن الأدب القديم كان على الدوام أسلوبيا تقليديا ولم يك قط ابتكاريا مستقبليا. وعبارة "قال فلان" ثم عبارة "السلف الصالح" كلتاهما تدل على أن الأديب العربي القديم كان ينشد الحكمة خلفه وليس أمامه. وكان ما يكتبه للخاصة، بل أخص الخاصة التي تعلمت مثله ودرست ثقافته ونزعت نزعته.

وأخص الخاص هذه كانت تلتفت إلى الماضي، لأن حقوقها التاريخية كانت تستند إلى هذا الماضي وإلى احترام عاداته ولغته. فجذبت إليها الأدباء الذين يؤيدون سلطانها.

وعندما نقرأ "البيان والتبيين" للجاحظ، أو أشعار المتنبي أو "الكامل" للمبرد، نحس أننا إزاء أدباء، إما يعيشون في بلاط أحد الأمراء، وإما يستندون في حياتهم الذهنية إلى تقاليد لغوية وأدبية ودينية وسياسية تمت إلى بلاط أحد الأمراء. أما الشعب فلا يحسون أي وجدان له.

ولكن هذا القول لا يمكن أن يذهب على إطلاقه. ففي فترات من تاريخ الأمم العربية انتشرت التجارة، بل انتشر شيئ من الصناعة، وخاصة في مصر والعراق. فظهر كتاب "ألف ليلة وليلة" وهو كتاب للشعب يكبر من شأن التاجر "السندباد" ويزود قراءه الفقراء بأحلام الجائع أي وصف حياة الأثرياء والملوك والأمراء. ولكن هذه النزعة لم ترتق إلى النضج لأن عوامل القوة لم تتوافر للشعب.

ولكن الشعوب العربية في أيامنا عرفت أعظم كلمة من كلمات القرن العشرين – كلمة "الديمقراطية". ومع أن بعض السياسة في مصر قد عبثوا بها فإن عبثهم سيذهب هباء وتمكث هي في الأرض.

الديمقراطية، الشعب، المساواة، التعليم العام – كلمات ميمونة. وبسبب هذه الكلمات الميمونة عادة التاجر إلى الظهور وأوشكنا أن نعرف مقام الصناعة وظهرت الصحف فأخصبت حياة الشعب. وصار النجار والبقال والتلميذ، بل أحيانا المزارع – هذا الرجعي العريق في رجعيته – أصبح كل هؤلاء يقرأون وتنفسح أذهانهم في آفاق رحبة من السياسة والأدب والاجتماع. وزودتهم الصحف بكل ذلك ولكن على مستوى منخفض. وتعلم الصحفيون لغة جديدة يكتبون بها ليست هي لغة أردشير "الذي أوصى ابنه فقال..." وإنما هي لغة الشعب.

يقول الفرنسيون، ويحسنون عندما يقولون، "ما ليس واضحا ليس فرنسيا" لأن الوضوح هو المنطق. والكاتب الواضح هو الكابت الفاهم، وعندما يفهم الكاتب يفهم القارئ، وعندئذ يكون التجاوب ويكون الاختمار الذهني.

كان فولتير يقول عن نفسه كلمة أحب أن أقولها عن نفيسى وأفخر بها – "لست عميقا ولكني على الدوام واضح".

لغة الشعب، لغة الصحافة، يجب أن تكون لغة الوضوح. وعلينا نحن الكتاب أن نهدف إلى بلاغة شعبية جديدة، فننزل إلى الشعب قبل أن نرفعه إلينا. بل إننا لن نسطيع أن نرفعه إلينا إلا إذا نزلنا إليه. ويجب أن نهدم الحاجز الذي يفصل بين الشعب والأدب باتخاذ الأسلوب الميسر والكلمة المألوفة. ويجب أن ننأى به عن أردشير ونحدثه عن أينشتين وعن إلغاء الفقر والجهل والمرض، وعن حق الشبان في السعادة وحق المرأة في الإنسانية.

يجب أن نؤلف المقالة والقصة والكتاب للشعب ونعرض على شباننا الآداب والفنون التي تخصب حياتهم وترفعهم من الاهتمامات الشخصية والوضيعة إلى المشكلات الاجتماحية والبشرية حتى يحيوا الحياة التاريخية وحتى يحس كل منهم أنه بطل له رسالة وله شرف.

رسالة وشرف، أي شيئ في الدنيا أعظم من هذا؟

سلامة موسى–الأدب للشعب، (القاهرة،1956) ص 26–30.

وحي القبور

مصطفى صادق الرافعي

ذهبت في صبح يوم عيد الفطر أحمل نفسى بنفسى إلى المقبرة، وقد مات لي من الخواطر موتى لا ميت واحد؛ فكنت أمشى وفى جنازة بمشيعيها؛ من فكر يحمل فكرا، وخاطر يتبع خاطرا، ومعنى يبكى، ومعنى يبكى عليه .

وكذلك دأبى كلما انحدرت في هذه الطريق إلى ذلك المكان البذي بأتيه العيون بدموعها، وتمشى إليه النفوس بأخزانها، وتجئ فيه القلوب إلى بقاياها. تلك المقابر التى لا ينادى أهلها من أهليهم بالأسماء ولا بالألقاب، ولكن بهذا النداء: يا أحبابنا، يا أحزاننا !

بذهبت أزور أمواتي الأعزاء واتصل منهم بأطراف نفسى، لأحيا معهم في الموت ساعة أعرض فيها أمر الدنيا على أمر الآخرة، فأننسى وأذكر، ثم أنظر وأعتبر، ثم أتعرف وأتوسم، ثم أستبطن مما في بطن الأرض، واستظهر مما على ظهرها .

وجلست هناك أشرف من دهر على دهر، ومن دنيا على دنيا، وآخرجت الذاكرة أفراحها القديمة لتجعلها مادة جديدة لأحزانها؛ وانفتح لي الزمن الماضى فرأيت رجعة الأمس، وكأن دهرا كاملا خلق بحوادثه وأيامه، ورفع لقينى كما ترفع الصورة المعلقة في أطارها .

أعرف أنهم ماتوا، ولكنى لم أشعر قط إلا أهم غابوا؛ والحبيب الغائب لا يبغير عليه الزمان ولا المكان في القلب الذي يحبه مهما تراخت به الأيام؛ وهذه هي بقية الروح إذا امتزجت بالحب في روح آخرى: تترك فيها مالا يمحى لأنها هي خالدة لا تسحى .

ذهب الأموات ذهابهم ولم يقيموا في الدنيا؛ ومعنى ذلك ذلك أنهم مروا بالدنيا ليس غير، فهذه هي الحياة حين تعبر عنها النفس بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها .

الحياة مدة عمل، وكأن هذه الدنيا بطل ما فيها من المتناقضات، إن هي إلا مصنع يسوغ كل إنسان جانبا منه، ثم يقل له: هذه الأداة فاصنع ما شئت، فضيلتك أو رذيلتك .

جلست في المقبر، وأطرقت أفكرة في هذا الموت. يا عجبا للناس! كيف لا يستشعرونه وهو يهدم من كل حى أجزاء تحيط به قبل أن يهدمه هو بجملته؛ وما زال كل بنسيان من الناس به كالحائط المسلط عليه خرابه، يتأكل من هنا ويتناثر من هناك!؟

يا عجبا للناس عجبا لا ينتهى! كيف يجعلون الحياة مدةو نزاع وهي مدة عمل، وكيف لا تبرح تنزو النوازى بهم في الخلاف والباطل، وهم كلما تدافعوا بينهم قضية من النزاع فضربوا خصما بخصم وردوا كيدا بكيد، جاء حكم الموت تكذيبا قاطعا لكل من يقول لشيئ: هذا لي؟

أما والله إنه ليس أعجب في السخرية بهذه الدنيا من أن يعطى الناس ما يملكونه فيها لإثبات أن أحدا منهم لا يملك منها شيئا، إذا يأتي الآتى إليها لحما وعظما، ولا يرجع عنها الراجع إلا لحما وعظما، وبيهما سفاهة العظم واللحم حتى على السكين القاطعة...

تأتي الأيام وهي في الحقيقة تفر فرارها؛ فمن جاء من عمره عشرون سنة فإنما مضت هذه العشرون من عمره. ولقد كان ينبغى أن تصحح أعمال الحياة في الناس على هذه الأصل البين، لولا الطباع المدخولة، والنفوس الغافلة، والعقو الضعيفة، والشهوات العارمة؛ فإنه ما دام العمر مقبلا مدبرا في اعتبار واحد، فليس للإنسان أن يتناول من الدنيا إلا ما يرضيه محسوبا له ومحسوبا عليه في وقت معا؛ وتكون الحية في حقيقتها ليست شيئا إلا أن يكون الضمير الإنسانى هو الحى في الحى .

وما هي هذه القبور؟ لقد رجعت عند أكثر الناس مع الموتى أبنية ميتة؛ فما بط رأوها موجودة إلا لينسوا أنها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه التحى المستغلغل في الحياة إلى تبعيد فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المعبد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضى بين خصمين يصلح بينهما صلحا أو يقضى .

القبر كلمة الصدق مبنية متجسمة، فكل ما حولها يتكذب ويتأول، وليس فيها هي إلا معناها لا يدخله كذب ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثرة، بقى القبر مذكرا بالكلمة شارحا لها بأظهر معانيها، داعيا إلى الاعتبار بمدلولها، مبينا بما ينطو عليه أن الأمر كله للنهاية .

القبر كلمة الأرض لمن ينخدع فير العمر الماضى كأنه غير ماض، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من رذائله وخسائسه؛ فلا يزال دائبا في به، فشر يعته جوفه وأعضاؤه؛ وترجع بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية، كالحمار مع الذي يملكه ويعلفه، ولو سئل الحمار عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حمارى.....

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إ لى آخر الدنيا، معناها أن الإنسان حى في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهى .

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبار بها والجزاء عليها، فالحياة هي الحياة على طريقة السلامة لا غيرها؛ طريقة إكراه الحيوان الأنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلها أصلا في طباعة، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهى بها، إذا كانت روحانيته في النهايات لا في بداياتها .

في الحياة الدنيا نكون الإنسان ذاتا تعمل أعمالها؛ فإذا انتهت الحياة انقلبت أعمال الإنسان ذاتا يخلد هو فيها؛ فهو من الخير خالد في الخير، ومن الشر هو خالد في الشر؛ فكأن الموت غن هو إلا ميلاد للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آية وراجعة .

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة، فلا يترك الشر يمضى إلى نهايته بل يحسم في بدئه ويقتل في أول أنفاسه، وكذلك الشأن في كل ما لا يحسن أن يبدأ، فإنه لا يجوز أن يمتد: كالعداوة والبغضاءن والبخل والأثر، والبراياء والغرور، والخداع والكذب؛ وماشابك هذه أو شابهها، فأنها كلها انبعاث من الوجود الحيوانى وانفجار من طبيعته؛ ويجب أن يكونه لكل منها في الإرادة قبر كي تسلم للنفس الطيبة إنسانيتها إلى النهاية .

يا من لهم في القبر أموات !

إن رؤية القبر زيارة في الشعور بقيمة الحياة، فيجب أن يكون معنى القبر من معانى السلام العقلى في هذه الدنيا .

القبر فم ينادى: أسرعوا أسرعوا، فهي مدة لو صرفت كلها في الخير ما وفت به؛ فكيف يضيع منها ضياع في الشر أو الإثم؟ لو ولد الإنسان ومشى وأيفع وشب واكتهل وهرم في يوم واحد، فما عساه كان يضيع من هذا اليوم الواحد؟ إن أطول الأعمار لا يراه صاحبه في ساعة موته إلا أقصر من يوم .

ينادى القبر: اصلحو عيوبكم، وعليكم وقت لإصلاحها؛ فإنها إن جاءت إلى هنا كما هي، بقيت كما هي إلى الأبد، وتركها الوقت وهرب .

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبر أيضا؛ فليس ينظر في هذا عاقل إلا كان نظره كأنه حكم محكمة على هذه الحياة كيف تنبغى وكيف تكون .

في القبر معنى إلغاء الزمان، فمن يفهم هذا استطاع أن ينتصر على أيامه، وأن يسقط منها أوقات الشر والإثم، وأن يميت في نفسه خواطر السوء؛ فمن معانى القبر ينشأ للإرادة عقلها القوى الثابت؛ وكل الأيام المكروهة لا تجد لها مكانا في زمن هذه العقل، كما لا يجد الليل محلا في ساعات الشمس .

ثلاثة أرواح لا تصلح روح الإنسان في الأرض إلا بها :

روح الطبيعة في جمالها، وروح المعبد في طهارته، وروح القبر في موعطته .

إيجاد الوعي في الأمة

أبو الحسن علي الحسني الندوي

إن أخوف ما يخاف على أمة ويعرضها لكل خطر ويجعلها فريسة للمنافقين ولعبة العابثين هو فقدان الوعي في هذه الأمة، وافتتانها بكل دعوة واندفاعها إلى كل موجة وخضوعها لكل متسلط وسكوتها على كل فظيعة وتحملها لكل ضيم، وأن لا تعفل الأمور ولا تضعها في مواضعها ولا تميز بين الصديق والعدو وبين الناصح والغاش وأن تلدغ بحجر مرة بعد مرة ولا تنصحها الحوادث، ولا تروعها التجارب، ولا تنتفع بالكوارث، ولا تزال تولي قيادها من جربت عليه الغش والخديعة والخيانة والأثرة والأنانية والجبن و العجز، والخرق والطيشن وكان سببا للهزيمة والذلة، ولا تزال تضع ثقتها فيه وتمكنه من نفسها وأموالها وأعراضها ومفاتيح ملكها وتنسى سريعا ما لاقت على يده من الخسائر والنكبات فيجترئ بذلك السياسيون المحترفون، والقادة الخائنون ويأمنون سخط الأمة ومحاسبتها ويتمادون في غيهم ويسترسلون في خياناتهم وعبثهم ثقة ببلاهة الأمة وسذاجة الشعب وفقدان الوعي.

أن الشعوب الإسلامية والبلاد العربية – مع الأسف – صعيفة الوعي – إذا تحرجنا أن نقول: فاقدة الوعي – فهي لا تعرف صديقها من عدوها ولا تزال تعاملهما معاملة سواء أو تعامل العدو أحسن مما تعامل الصديق الناصح وقد يكون الصديق في تعاب وجهاد معها طول حياته بخلاف العدو، ولا تزال تلدغ بجحر واحد ألف مرة ولا تعتبر بالحوادث والتجارب، وهي ضعيفة الذاكرة سريعة النسيان تنسى ماضي الزعماء والقادة، وتنسى الحوادث القريبة والبعيدة، وهي ضعيفة في الوعي الاديني والوعي الاجتماعي وأضعف في الوعي السياسي، وذلك ما جر عليها ويلا عظيما وشقاء كبيرا وسلط عليها القيادة الزائفة وفضحها في كل معركة.

إن الأمم الأوروبية – برغم إفلاسها في الروح والأخلاق وبرغم عيوبها الكثيرة التي بحثنا عنها في هذا الكتاب – قوية الوعي– الوعي المدني والسياسي – قد بلغت سن الرشد في السياسة، وأصبحت تعرف نفعها من ضررها، وتميز بين الناصح والخادع، وبن المخلص والمنافق، وبين الكفء والعاجز، وفلا تولي قيادها إلا الأكفاء الأقوياء الأمناء، ثم لا توليهم أمورها إلا على حذر، فإذا رأت منهم عجزا أو خيانة أو رأت أنهم مثلوا دورهم وانتهوا من أمرهم استغنت عنهم وأبدلت بهم رجالا أقوى منهم وأعظم كفاءة وأجدر بالموقف، ولم يمنعها من إقالتهم أو إقصائهم من الحكم ماضيهم الرائع وأعمالهم الجليلة وانتصارهم في حرب، أو نجاحهم في قضية. وبذلك أمنت السياسيين المحترقين، والقيادة الضعيفة أو الخائنة، وخوف ذلك الزعماء ورجال الحكم وكانوا حذرين ساهرين يخافون رقابة الأمة وعقابها وبطش الرأي العام.

فمن أعظم ما تخدم به هذه الأمة وتؤمن من الهازل و المآسي التي لا تكاد تنتهي هو إنجاد الوعي في طبقاتها ودهمائها وتربية الجماهير التربية العقلية والمدنية والسياسية. ولا يخفى أن الوعي غير فشو التعليم وزوال الأمية وإن كانت هذه الأخيرة من أنجح وسائلها، وليعرف الزعماء السياسيون والقادة أن الأمة التي يعوزها الوعي غير جديرة بالثقة ولا تبعث حالتها على الارتياح وإن أطرت الزعامة والزعماء وقدستهم فأنها – مادامت ضعيفة الوعي – عرضة لكل دعابة وتهريج وسخرية كريشة في فلاة تلعب بها الرياح ولا تستقر في مكان.